التوجهات الدينية للحركة الوطنية عند أبو القاسم سعد الله

د. قنانش محمد
جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس

تمهيد

ورثت الجزائر بعد الاستقلال نخب واعية من العقول النيرة الخفاقة ومن المواهب والكفاءات الخلاقة، استطاع أن يتتلمذ على يدها وعلمها وسيرتها جيل الجزائر الحرة مطلع الستينيات والسبعينيات. فكانت تلك النخب المثقفة وقتها القاطرة المسيرة والقوة المحركة للنهضة الثقافية والفكرية والتاريخية في مجال التعليم والتكوين والتأهيل لدى الطلاب الجزائريين. من هنا بدأت ملاح المدرسة الجزائرية ذات البعدين الوطني والحضاري .

من الوجوه المشرقة التي مثلت الرعيل الأول للمدرسة الجزائرية عشية الاستقلال، يقودنا الحديث إلى ذكر بعض الرموز الوطنية الشامخة من أمثال الشيخ البشير الإبراهيمي، محمد مبارك الميلي، أحمد توفيق المدني، الشيخ عبد الرحمن الجيلالي،قاسم نايت بلقاسم، عبد الرزاق قسوم ويحي بوعزيز وغيرهم من الأهرامات الفكرية .

و في هذا الشأن، يأتي أبو القاسم سعد الله ليفرض مكانته المرموقة ضمن أسماء كوكبة المثقفين التي تم ذكرها.

ومما لاشك فيه، أن أبي القاسم سعد نظرا لمنزلته العلمية وطاقاته الإبداعية، يتصدر طليعة المدرسة التاريخية باعتباره شيخ المؤرخين، وبرجع الفضل في تبوئه هذه المرتبة العليا إلى عدة اعتبارات ودلالات، أهمها خصوبة فكره وأكاديمية أعماله ونزاهة مواقفه ونبل خلقه وعظيم تواضعه وطهارة وطنيته .فشمائل الرجل، كانت له المؤهلات الحقيقية شخصيته الفكرية والتاريخية والأدبية، القادرة على قيادة يقظة الفكر ونهضة العصر ليؤسس أبو القاسم غداة الاستقلال إلى يوم التحاقه برفيقه الأعلى، اللبنات الأولى للمدرسة التاريخية في الجزائر المستقلة.

ما هي المنطلقات الإيديولوجية التي جاءت بها المدرسة التاريخية لأبي القاسم سعد الله؟ ما هي أصولها وفروعها وتوجهاتها؟ما وزن إسهامات نخبها الوطنية في المسيرة العلمية التاريخية ؟

1. أبو القاسم سعد الله بين الفاء والعطاء

أبو القاسم سعد الله شخصية وطنية مبدعة من المساهمين في تأسيس المدرسة التاريخية الجزائرية الحديثة بعد الاستقلال سنة 1962.فالرجل من مواليد سنة 1930ببلدة قمار ولاية واد سوف، أين حفظ القرآن الكريم ونهل من عيون المعرفة مبادئ اللغة وأصول الفقه والدين. تبوأ مكانته المرموقة ضمن أعلام الإنتاج الفكري والإصلاح الإجتماعي، بحيث تلقى تكوينا علميا قائما على أسس معرفية صلبة أهلته ليكون مؤرخا ومفكرا وأديبا. نال أبو القاسم سعد كفاءته العلمية بصلابة إرادته وجسامة تضحياته، خلال سفريته العلمية إلى الولايات المتحدة الأمريكية أين تحصل على شهادة الدكتوراة من جامعة منيسوتا، تم انتقل إلى كلية دار العلوم بالقاهرة .سمح له تكوينه العلمي أن يتخصص في رحاب التاريخ، فاتجه ميوله نحو تاريخ

أوربا والمغرب العربي في الحديث والمعاصر، وتاريخ النهضة الإسلامية الحديثة .

تقلد عدة وظائف في التعليم العالي، ليصبح المؤرخ المفكر، سفيرا للجزائر في الحقل المعرفي عبر جامعات الوطن العربي والعالم الغربي. في البداية، اشتغل بجامعة الجزائر أستاذا مشاركا في التاريخ منذ سنة 1967ليرتقيفي عام 1971 إلى أستاذ في التاريخ ورئيسا لقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الجزائر. درس في جامعات الولايات المتحدة الأمريكية، بحيث كان أستاذا مساعدا في التاريخ بجامعة وايسكنسين وأوكلير من 1960 إلى 1976،و جامعة متشيغان بإقليم البحيرات الكبرى من 1987 إلى 1988. أما في الوطن العربي، فقد كان ممثلا متميزا للجزائر في مجال التعليم العالي، مشرفا على تدريس مادة التاريخ بجامعة عين الشمس بمصر عام 1976، وجامعة دمشق عام 1977و جامعة الملك عبد العزيز في المملكة العربية السعودية عام 1985، وجامعة آل البيت بالأردن عام 1996. وقد كان أيضا أستاذا زائرا بجامعة مينيسوتا بالولايات المتحدة الأمريكية، بقسم التاريخ طوال سنوات 1994، 1996 و2001 .

إن الفكر الخصب الذي تميزت به الحياة العلمية لشيخ المؤرخين أبي القاسم سعد الله، بات من اللازم الاعتراف بعظمة هذا الرجل بأنه المؤسس الأول للمدرسة التاريخية الجزائرية بعد الاستقلال. ويمكن إبراز قدرات وأحقية سعد الله "المدرسة والموسوعة " في عوامل رئيسية وأسس جوهرية تتمثل بالأساس في سعة فكره وخصوبة إنتاجه ومصداقية وطنيته، وتحليله الرصين لتاريخ ومكونات الحركة الوطنية الجزائرية، التي سنحاول من خلالها تسليط الضوء على مفاهيم

ومواقف " المنظ"سعد الله من الحركة الوطنية. فبالنسبة للرجل الموسوعي بفكره الخلاق، فإن أبي القاسم سعد الله استطاع أن يغني المكتبة الوطنية وينمي مخزونها القومي العلمي بثرواته المعرفية وإبداعاته الفكرية. وأنتج في مجال تخصصه " ترسانة" من المؤلفات الموسوعية، يتقدم موسوعته الأولى، كتابه الضخم "تاريخ الجزائر الثقافي" كالدوحة التي ألقت بأغصانها على جمهور القراء ونخب المجتمع الجزائري والعربي في عشرة مجلدات أو أجزاء، بمجموع 5071 صفحة، وموسوعته الثانية " أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر " الموزعة في خمسة مجلدات بمجموع 1675 صفحة، وموسوعته الثالثة هي رسالته للدكتوراة، عنوانها "الحركة الوطنية الجزائرية" بمجلداتها الأربعة وتعداد صفحاتها 1880 صفحة .

فضلا عن كتبه الأخرى التي زادت عن 40 مؤلفا، اشتملت على التراجم والدراسات المختلفة والتحقيق والإبداع الأدبي بمختلف ضروبه.[1]

الظاهر، أن المؤرخ من رواد المدرسة التاريخية الوطنية بعد الاستقلال، إذ أنه اجتمعت في خصاله العلمية أربعة صفات انصهرت في كيانه واستقرت في وجدانه، وأنارت عقله. هذه الخصال هي بالأساس، صفة « سعد الله المؤرخ، الأديب، الناقد، و المنظ« لقد عبر أبو القاسم سعد الله عن مفاهيمه ومواقفه من الحركة الوطنية الجزائرية في العديد من مؤلفاته وكتاباته، غيرأنا سنحاول إبراز ذلك من خلال بعض المحاضرات التي ألقاها أبو القاسم في الملتقى الوطني الأول لكتابة تاريخ الثورة الجزائرية عام 1981.

يحاول أبو القاسم سعد الله إيضاح مفاهيمه وتأسيس موقفه من الحركة الوطنية، انطلاقا من الاتجاهات الفكرية والثقافية التي ميزت مسيرة النضال الوطني التحرري في الجزائر ما قبل الاستقلال، وبالتحديد فترة العشر سنوات السابقة للثورة. اشتملت الحركة الوطنية فكريا وثقافيا على ثلاث اتجاهات، هي في الأصل الاتجاهات الدينية والاتجاهات السياسية، والاتجاهات الثقافية.[2]

المعروف أن الحركة الوطنية تعني في حد ذاتها مجموعة ردود الفعل الوطنية الجزائرية ضد سياسة المستعمر الفرنسي انطلقت منذ أن وطأت أقدام المحتل أرض الجزائر الحرة. ولذلك في البداية يوضح سعد الله مفهومه لهذه المرحلة أن بداية النضال الوطني التحرري كان منصبا على دحر المستعمر وتخليص البلاد منه. ذلك أن الحركة الوطنية الجزائرية كانت بالدرجة الأولى سياسية تقوم على مقاومة المستعمر بالسلاح أولا، خصوصا خلال القرن التاسع عشر، ثم لجأت إلى العمل السياسي المنظم في شكل أحزاب وهيئات، سواء كان التنظيم السياسي في الجزائر أو في فرنسا نفسها، فإن محتواه الفكري والثقافي كان ضعيفا إن لم يكن معدوما[3] فأبو القاسم سعد الله، يلغي أية علاقة بين الدافع الفكري ونظيره السياسي التحرري في هذه الفترة بالذات، مما يرجح القول أن إرادة التحرر لدى الجزائريين في بداية الإحتلال نابعة من صميم طاقتهم الفطرية التلقائية الخالية من أية ثقافة سياسية أو فكرية .

2 - التوجهات التقليدية

يحصره شيخ المؤرخين في موقف رجال الدين من الاستعمار سلبا وإيجابا، فنراه يصف الدور الايجابي لأصحاب التيار التقليدي بمصطلح

" الإسلام المجاهد" [4] يتجلى هذا الموقف في مسيرة الجهاد التي قادها رجال الطرق الصوفية من المرابطين أمثال لالة فاطمة نسومر، الشيخ ابن الحداد، الشيخ بوعمامة على امتداد مرتفعات الإقليمين التلي الصحراوي، التي كانت بالفعل بطونا للكفاح وحصونا للمقاومات الشعبية على مدى أزيد من خمس عقود من زمن القرن التاسع عشر. لقد حمل قادة الإسلام الجهادي لواء المقاومة الشعبية برفع السلاح في وجه المستعمر الفرنسي وقواته الغازية، محاولة منهم تطهير الوطن من وطأة الكافر.

فالدور الأكبر في المقاومة الوطنية العسكرية والفكرية في بدايتها، كان على عاتق هؤلاء الرجال، من الزوايا التي كانت وراء كل الثورات والانتفاضات.[5] و تكفي الإشارة هنا إلى الطريقة الرحمانية والقادرية والدرقاوية التي لعبت دور ا مؤثرا في المقاومات الشعبية ضد الغاصب الفرنسي. لهذا، فأغلب الذين رفعوا السلاح ضد الفرنسيين كانوا شيوخا أسندوا ظهورهم إلى مقدمين لطرق معينة خاصة الرحمانية والقادرية، مثل الشيخ مولاي أحمد في منطقة الشرق الجزائري [6] نظرا لدورها المتصاعد في دعم وتيرة المقاومة مند بداية الإحتلال، ازداد عدد مريدي الطرق الصوفية، لأنها على رأي سعد الله، حاملة لواء الإسلام المجاهد. ولهذا الغرض، تحولت حركة الزوايا إلى قواعد شعبية للمقاومة التحررية أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر.لذلك تشير إحصائيات عام 1851 في قطاع الشرق الجزائري إلى تسجيل 67.13 ألف مريدا للطريقة الرحمانية، 15.64 ألف مريدا للطريقة الطيبية و8.34 ألف مريدا للطريقة القادرية، و4.95 ألف مريدا للطريقة التيجانية، و1.17 ألف مريدا للطريقة الحنصالية.[7] خلقت هذه الإيجابية في الذهنية الإستعمارية مشاعر التعجب والذهول، ـ ا

رأت فرنسا في التيار التقليدي المجاهد عزيمة تصفية المستعمر، فأدركت أهميته في المقاومة، وراحت تعمل بشتى الوسائل على تقويضه و إبادته بأساليب متعددة كتدجين قادته، وترهيب أتباعه. في هذا الصدد، يقول سعد الله: "عمد المستعمرون إلى تفتيت القيادة الواحدة في الأسرة الدينية الواحدة، فجعلوا الابن ضد أبيه، و الأخ ضد أخيه، و المقدم ضد شيخه، وربطوا كل واحد منهم بمصلحة أو وظيفة، فجعلوا بعض المرابطين قيادا، ووضعوا حوله العيون وأحاطوا البعض الآخر بالأبهة، ووصل بهم الأمر أن زوجوه من فرنسيات، غير أن بعضهم حرموه واتهموه وهكذا ضاع السر الذي كان أصحاب هذا الاتجاه يتمتعون به عند الشعب. "[8]

وفي المقابل، عزز النظام الإستعماري علاقته من التيار الثاني، الممثل في الإسلام السكوني على حد تعبير أبي القاسم سعد الله، الذي يعكس الوجه الآخر للتيار التقليدي. يمثل الموقف السكوني بعض الفرق من رجال الطرق الصوفية وبالأخص بعض فروع الطريقة التيجانية والطريقة الرحمانية والدرقاوية. ويرى سعد الله فيأمر هذه الحركات الصوفية، أنها لم تساهم إسهاما مباشرا في المقاومة.[9] و هذا يعني أنها وقفت موقف المؤيد أو المدافع عن مصالحها على حساب المسألة الوطنية، مما يسر على المحتل في بداية الإحتلال أن يتخذها حليفا طبيعيا له في ضرب الحركات الصوفية الأخرى الداعمة لروح المقاومة. ولذلك يكون قد نجح المستعمر في تشويه الاتجاه الصوفي وتفكيكه إلى نقيضين، بحيث تحول ما يوصف بالإسلام السكوني إلى "مهزلة " عندما ضاع سر تلك الفروع، فزالت الهيبة في أعين الناس، وغدت كلمة " المرابط" عشية اندلاع الكفاح المسلح مرادفة لعبارات التخريف،

الدجل و التخلف بعدما كانت سلوكا و أسوة يقتدى به في التدين والوعي والتحرر والجهاد .

3- التوجهات المعتدلة

من الطبيعي أن العاملين في الحقل الديني كما يرى سعد الله، صنفان، الصنف الأول من المتصوفة ويتشكل كما قلنا سابقا من الإسلام المجاهد، أي التيار التقليدي المقاوم والإسلام السكوني أي التيار التقليدي المتحالف، و يعيش هذا الصنف المركب من أموال عامة المجتمع. أما الصنف الثاني، فإنه يستفيد من أموال الدولة ويمثل رجالات الاتجاه المعتدل من جمهور الفقهاء، موظفون عند الدولة ويقومون بدور الإفتاء والقضاء والإمامة والتعليم، إنهم " النخب الدينية من العلماء"، تلقى هؤلاء العلماء تكوينهم العلمي والمعرفي في مدرسة المستشرقين الفرنسيين حسب رأي أبي القاسم سعد الله. ولما شعر المسؤولون الفرنسيون صعوبة إيجاد العلماء المتعاونين معهم إبان السنوات الأولى التي أعقبت الإحتلال، بسبب هجرة بعض العلماء الجزائر بعد الإحتلال، وعدم وثوق الفرنسيين فيهم لأنهم لم يتخرجوا من مدارسهم، كانت حاجة المستعمر ملحة عليه أن يشرع في تكوين نخب من العلماء والمثقفين الجزائريين، يقفون إلى جانبه ويعملون على إنجاح سياسته .

بعد تأسيس المدارس الفرنسية العربية الثلاث سنة 1850في الجزائر واتساع حركة الاستعراب، بغاية سعي فرنسا إلى ملء المكاتب العربية وإدارات الشؤون الأهلية، تم تخرج دفعات قليلة من تلك المدارس، تسلم أصحابها وظائف دينية وتعليمية كانت شاغرة، تخص الإفتاء والقضاء والتعليم والإمامة.و يقول سعد الله:"لم يكن الفرنسيون

يوظفون من الجزائريين، إلا أولئك الذين تخرجوا على أيديهم وتحت إشرافهم، ويعملون العراقيل أمام المتخرجين من المعاهد الإسلامية الأخر بلعدم الثقة فيهم".[10] وقد كان هؤلاء الرجال تحت أنظار المستعمر الفرنسي، تحت الرقابة المستمرة، ولم يكونوا أحرارا في نشاطهم فحسب، بل ظلوا موظفين مقيدين ومجردين من أي الحق في الاعتراض والرأي والنقد.

غير أن السياسة الإستعمارية الفرنسية المتبعة في الجزائر خلال هذه الفترة، أنتجت أفواجا من النخب المجددة للتيار التقليدي، استطاعت من خلالها، الحركة الثقافية الجزائرية أن تتفاعل مع تحديات عصرها. حاول بعضهم من تلك النخب التعبير عن موقفه باعتدال، عن طريق اللجوء إلى التأليف وبعث التراث الوطني. وفي هذا الشأن يضرب سعد الله مثالا عن هذا الدور بقوله:" أسهم ابن أبي شنب في بعث التراث الوطني، والحفناوي بن الشيخ ومحمود بن دالي في الصحافة الوطنية والرسمية، ودعا آخرون إلى اليقظة العلمية مثل ابن الموهوب والمجاوي وانتقد آخرون التدخل في شؤون القضاء الإسلامي مثل المكي بن باديس، وعبد الحليم بن سماية الذي وقف باسم الدين ضد التجنيد الإجباري للجزائريين في الجيش الفرنسي. وهناك من تأثر كما يرى سعد الله بأفكار ومبادئ الجامعة الإسلامية، من أمثال مصطفى بن الخوجة الذي دعا إلى تحرير العقل والالتزام بمبادئ الإسلام الصحيح عن طريق التعليم والاقتداء بالأوربيين في مجال العمل والاجتهاد، و هم واثقين بأن الإسلام يركو على ذلك .

شكل أنصار هذا التيار كتلة من النخب الجزائرية، يصفها أبو القاسم سعد الله باسم "كتلة المحافظين". تتكون هذه الكتلة من المثقفين التقليديين أو العلماء، ومن المحاربين القدماء، ومن زعماء الدين

وبعض الإقطاعيين والمرابطين، و من بعض المعلمين والصحفيين المتأثرين بفكرة الجامعة الإسلامية، الذين تخرجوا من المدارس القرآنية والمدارس الفرنسية الجزائرية. ركز أصحاب التيار المحافظ المعتدل على نبذهم للأفكار الغربية، التجنيس والتجنيد الإجباري في الجيش الفرنسي، ودعوا إلى المحافظة على النظم الإسلامية والتعليم العربي والحرص على القيم والتقاليد القديمة، لكنهم من الناحية السياسية رفضوا مقاومة المستعمر، متمسكين بإرادة الله إلى حين أن تتحقق معجزة تخليص البلاد من المحتل الفرنسي.[11] ومن الشخصيات البارزة لدى كتلة التيار المعتدل، الممثلة لأفكار وقيم كتلة المحافظين، الشيخ عبد القادر المجاوي، سعيد بن زكري، عبد الحليم بن سماية، مولود بن الموهوب، وحمدان بن الونيسي الذي كان أستاذالعبد الحميد بن باديس.[12]

4- التوجهات الإصلاحية

من بين الاتجاهات الفكرية التي احتضنتها الحركة الوطنية، هنالك التيار الإصلاحي الذي هو فرع من فروع الاتجاهات الدينية. فالاتجاه الإصلاحي حسب شيخ المؤرخين أبي القاسم سعد الله، لا يبدأ تاريخه بميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ثلاثينية القرن الماضي وأنما تعود أصوله إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. لذا يقول سعد الله: "إن الدعوة إلى الإصلاح، أقدم بكثير من تاريخ إنشاء الجمعية، وبذور هذه الدعوة في كتابات عبد القادر المجاوي في السبعينيات عن التعليم، وكتابات المكي بن باديس عن إصلاح القضاء في الثمانينيات من القرن التاسع عشر" [13] تمكن الشيخ المجاوي من نشر أفكاره الإصلاحية عن طريق التعليم في مدارس الجائر وقسنطينة،

وتخرج على يده كل من ابن أبي شنب، مولود بن الموهوب، ومصطفى بن خوجة .
و من جهة أخرى، أثرت جهود الشيخ المكي بن باديس في سلك القضاء، واستمرت أفكاره بعد في أحفاده أمثال حميدة بن باديس، والشيخ عبد الحميد بن باديس .

على هذا الأساس، تعود جذور الاتجاه الإصلاحي إلى عوامل رئيسية بارزة، وترجع في البداية إلى كتابات وأعمال كتلة المحافظين، أي التيار الديني المعتدل، وانتشار أفكار الجامعة الإسلامية وزيارة محمد عبدو إلى الجزائر مطلع القرن الماضي، وانتعاش الحركة الثقافية بين الجزائر وبلاد المشرق عن طريق الزيارات والرسائل المتبادلة بين المهاجرين في الجزائر وإخوانهم في المشرق العربي. وفي هذا الشأن يقول سعد الله:" وما إقامة الشيوخ حمدان الونيس والإبراهيمي والعقبي في الحجاز قبل الحرب العالمية الأولى، وزيارة ابن باديس إلى المشرق العربي أثناء الحرب العظمى، وزيارة الطاهر الجزائري للجزائر، إلا إرهاصات الإصلاح في الجزائر قبل ظهور جمعية العلماء بل أنه يمكننا أن نعد حركة الأمير خالد حركة إصلاحية، وهي قد ظهرت قبل أو واكبت حركة العلماء ".[14]

تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الخامس من ماي 1931 بنادي الترقي في الجزائر العاصمة برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس، وبعد وفاته في السادس عشر من أبريل 1940، تقلد رئاسة الجمعية الشيخ البشير الإبراهيمي. فإذا كانت جهود الجمعية الإصلاحية استمرارية لحركة الإصلاح التي انطلقت أواخر القرن التاسع عشر على يد أصحاب التيار الديني المعتدل، فإن فجوة الاختلاف واسعة بين

المدرستين في التصور والمنهج والهدف والإستراتيجية. فالإصلاح الذي دعا إليه العلماء يختلفي عمقه وحجمه عن حركة الإصلاح التي سبقت جمعية العلماء. ركز المصلحون السابقون نشاطهم الإصلاحي على النصوص الأدبية والمقالة الصحفية وتجلى آثارهم في الجرائد وخطب الجمعة والنوادي الثقافية ومؤلفاتهم الفقهية. وبالمناسبة، يورد شيخ المؤرخين أبي القاسم سعد الله نص خطبة للمولود بن الموهوب عندما تولى منصب الإفتاء في قسنطينة، ركز فيها على محاربة المسلمين للجهل والتعصب، وحب العلم والتحلي بالتسامح وتقليد جيرانهم الأوربيين المتفوقين، ودعا إلى اكتساب المعارف بقوله:" زينوا أفكاركم بالمعارف واتركوا النوم، يا قوم، فإنه ليس أمس كاليوم، فمن ترك التعلم، فهو الجلمود لأن الزمان زمان سباق، وكل شيء له المعرفة صداق ..."[15]

ولذلك تميزت حركة الإصلاح لدى الاتجاه المحافظ بخصوصيات واضحة، جعلت إيديولوجيتهم الدينية تتصف حسب أبي القاسم سعد الله، بالإصلاح المحتشم أو الحذر، لأنهم كانوا أناس مدينين في الأغلب للإدارة الإستعمارية بوجودهم.أما العلماء المسلمين الجزائريين، انصب نشاطهم الإصلاحي في رأي سعد الله على العمل السافر الجريء، القائم على تصفية الدين من الخرافات وبعث التعليم العربي، وإحياء التراث بنشر حضارة الإسلام وتنشئة جيل يؤمن بهذه القيم ليدعم الحركة الوطنية .انطلاقا من هذه الأسس، يقول شيخ المؤرخين عن العلماء:

" فإن إصلاح العلماء، قام على خطة عمل مرسومة للوصول إلى هدف محدد، ويكفي أن نقول أن برنامجهم يمثل دفعة جديدة ربطت الإصلاح بالدين والدنيا، وبالتراث والوطنية.[16] هذا ويرى البعض من

المفكرين الجزائريين، أن الاتجاه الإصلاحي كان له الدور الأبرز في بعث النهضة الثقافية وتعميق الوعي الوطني الحضاري المنتفض على البدع والتحجر والانزواء إلى الماضي العقيم. فالاتجاه الإصلاحي كما يراه سعد الله وغيره، أنه فكر متقدم ومتطور بالقياس مع الاتجاه السابق، بل هو ثورة عليه. لقد أحدث الفكر الإصلاحي نوعا من التوازن بين الماضي والحاضر وأوجد جسرا بينهما، فهو يختار من الماضي ألمع فتراته، ويسعى إلى التوفيق بين الحضارة الإسلامية وبين الحضارة الغربية الغازية.[17] حملت راية الإصلاح بمفهومه الحديث جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مند تأسيسها في الخامس من ماي 1931، بفكر مستنير ومتفتح على عكس التيار المحافظ، معلنة رسالة التحرير في بعد الواسع، يؤدي بالوطن في المدى البعيد إلى التحرر الشامل أو الاستقلال التام. إن غاية الجمعية غاية إصلاحية، تهدف إلى تطهير الدين والعودة إلى الأصول لاستنباط الأحكام، وتنشئة جيل جزائري جديد مسلح بثقافة وطنية وفكر عربي، ليتمكن في المستقبل من تحقيق الأمنية الغالية وهي الاستقلال.[18]

- خلاصة

على ضوء المقاربات والقراءات الفكرية والتاريخية المستقاة مما أنتجه أبو القاسم سعد الله بشأن التحولات الفكرية التي طبعت الحركة الوطنية الجزائرية عبر سياقاتها التاريخية، نستطيع الوقوف عند المحطات والنتائج التالية:

بروز نخب متعددة المشارب، موحدة الأهداف تحملت لواء المقاومة السلمية للمستعر الفرنسي. نشأة ثقافات وطنية بعضها استمد روحه من رؤى متأصلة والذي يصفه سعد الله بالتقليديين أو

المحافظين، وا لبعض الآخر ينطلق من رؤى متفتحة أطلق عليهم أبو القاسم بالتيار المعتدل. دور الوازع الديني في تحريك الشعور التحرري إبان السنوات الأولى التي رافقت الإحتلال .إسهامات النخب الصوفية والفقهية في توجيه تلك الحركات أو الثقافات، من منطلقات روحية دينية، التزم أصحابها في الجوهر برسالة الدود عن مكونات الهوية الوطنية في خضم حملات التنصير وتداعيات التشريع الخطير. صياغة مشروع إصلاحي جديد مبني على أنقاد التقليديين والمعتدلين وتجاربهم، ألا وهو التيار الإصلاحي الحديث في بداية ثلاثينيات القرن الماضي.

وفي نهاية الأمر، بجدر بنا القول أن الحركة الوطنية الجزائرية في بحر القرن التاسع عشر، كانت مهمتها في البداية الدفاع عن قضية الهوية قبل السيادة، وحسب سعد الله يظهر ذلك فيما سماهم " أنصار الإسلام السكوتي " الذين يصح أن نسميهم حاليا بالتيار السلمي، والذين منيت حركاتهم بالفشل على يد جماعات "الإسلام المجاهد" يؤكد سعد الله، أي ما يعرفون اليوم في رأينا تقريبا بالثوريين الأحرار لأنهم هم وقود المقاومات الشعبية في ذلك الزمن لكونهم وفقوا في رأينا في توثيق الصلة بين رسالة الهوية ومسألة السيادة.

على كل حال، مهما ساد التنوع في الأهداف والأوصاف وعم التباين في المشارب والمآرب، فإن كل ذلك، أغني بحق رصيد الحركة الوطنية الجزائرية، وبين بصدق أن الجزائري حر وأن الوطن لا يقاس شأنه بأي ثمن وأن التضحية فطرة متأججة وثقافة متجذرة في عمق المجتمع الجزائري عبر مر العصور والأجيال .

الهوامش

(1) منتدى شخصيات بلادي، " السيرة الذاتية لأبي القاسم سعد الله "، الجزائر، 2008، ص 2.

(2)المرجع السابق، ص 2.

(3) أحمد بن السائح، " الدكتور أبي القاسم سعد الله، مؤسس المدرسة التاريخية الجزائرية «، المكتبة الرقمية، الجزائر، 2013، ص 1.

(4) أحمد بن السائح، نفس المرجع، ص 1.

(5) منتدى شخصيات بلادي، المرجع السابق، ص 3.

(6) أبو القاسم سعد الله، " الذكرى الثالثة للثورة الجزائرية 1957 "، مجلة الثقافة، العدد 83، الجزائر، أكتوبر 1984، ص ص 243. 251.

(7) منتدى شخصيات بلادي، المرجع السابق، ص 3.

(8) منتدى شخصيات بلادي، المرجع السابق، ص ص 3. 4.

(1) أحمد بن السائح، المرجع السابق، صص 1.2.

(2) أبو القاسم سعد الله، " الاتجاهات الفكرية والثقافية للحركة الوطنية الجزائرية "، مجلة أول نوفمبر، العدد 53، الجزائر، 1981، ص ص 18. 26 (3) أبو القاسم سعد الله، نفس المرجع، ص 18.

(4) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 20.

(5) حميدة عميراوي، جوانب من السياسة الفرنسية وردود الفعل الوطنية في قطاع الشرق الجزائري، الطبعة الأولى، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة الجزائر، ص 64.

(6)عميراوي، نفس المرجع، ص ص 64. 65.

(7)عميراوي، نفس المرجع، ص 65.

(8) أبو القاسم سعد الله، نفس المرجع، ص 20.

(9) سعد الله، نفس المرجع، ص ص 20. 21.

(10) سعد الله، المرجع السابق، ص 21. (11) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الثاني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص ص 151. 152.

(12) أبو القاسم سعد الله، نفس المرجع، ص 154.

(13) أبو القاسم سعد الله، " الاتجاهات الفكرية والثقافية للحركة الوطنية الجزائرية "، مجلة أول نوفمبر، المرجع السابق، ص 21

(14) أبو القاسم سعد الله، الملتقى الوطني الأول لتاريخ الثورة، 28 . 31 أكتوبر 1981، مجلة أول نوفمبر، العدد 53، الجزائر، ص ص 21. 22.

(15) أبو القاسم سعد الله، " مساهمة بعض المفكرين الجزائريين في اليقظة الإسلامية في القرن التاسع عشر "، ملتقى الفكر الإسلامي السادس من 24 جويلية إلى 10 أوت 1972، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، المجلد الرابع، مطابع دار البعث، قسنطينة، 1973، ص ص 106. 107.

(16) سعد الله، نفس المرجع، ص 22.

(17) عبد الله ركيبي، " دراسة مقارنة للتيارات الفكرية قبل الثورة وأثناءها "، مجلة الأصالة، عدد 22، خاص بالذكرى العشرون لاندلاع الثورة الجزائرية 1954. 1974، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ديسمبر 1974، ص ص 38. 49.

(18) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص ص 118 .119.